تجليّات الأنساق الثقافية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

Manifestations of cultural harmony in Prince Abdelkader's poetry

أ.د/الحاج جغدم

djourdemhadj@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف – الجزائر

ملخّص:

تتطلّع هذه الورقة البحثية الموسومة بـ "**تجليات الأنساق الثقافية في شعر المير عبد القادر الجزائري**" إلى مكاشفة الأنساق الثقافية التي ينبني عليها الخطاب الشعري لدى الأمير، متوقفين عند موضوعه "الفخر" باعتبارها من المكونات المركزية لعناصر النسق الذي كان قبلياً، ثم انزاح مع الشعر ليكون في ضمير الأمة؛ إذ تقوم فيه "الأنا" مقاماً أساسياً يختص فيه الشاعر مهاراته في تضخيم الذات مقابل تحقير الآخر واعتباره بمثابة خصم.

الكلمات المفتاحيّة: تجليات، الأنساق الثقافية، الأمير عبد القادر، الجزائري.

Abstract:

This paper, tagged "Manifestations of Cultural Stereotypes in the Poetry of Mir Abdelkader Algeria", looks forward to revealing the cultural stereotypes on which the Prince's poetic discourse is based, stopping with his theme "Pride" as one of the central components of the formulaic elements of the formulaic formats, and then moving away with poetry to be in the conscience of the nation; The "ego" has an essential place in which the poet specializes in his skills of self-amplification versus demeaning the other and viewing him as an opponent.

Keywords: Manifestations, Cultural Pattern, Prince Abdelkader, Algeria.

1. مقدّمة:

يُعدُّ النقد الثقافي نشاطاً فكريّاً ومعرفياً، أفرزته مناهج النقد وتياراته المختلفة لما بعد الحداثة؛ إذ ظهر كرد فعل على المناهج النسقيّة التي فوضت النص الأدبي وعزلته عن محيطه وسياقاته الخارجية، وهو بذلك الانتقال بالفعل النقدي من نقد النصوص والعناية بجمالياتها الأسلوبية إلى نقد الأنساق المهمشة فيها، وبهذا يتخذّ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره، كما أنه فعالية تستعين بالنظريات والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المساس به أو الخوض فيه، وهكذا يسعى إلى مقاربة فعل الثقافة في المجتمعات وهذا ماي جعل من النقد الثقافي نظرية لا في الثقافة وإنما في نقد المستهلك الثقافي.

أولا: النقد الثقافي: النشأة والتحول:

إنّ نشأة النقد الثقافي كانت غربيّة؛ إذ ظهرت الإرهاصات الأولى بأوروبا مع جماعة فرانكفورت مع الثنائي "أدرنو" "فالتر بنيامين"، دون أن نغفل جهود مركز برنغهام للدراسات الثقافية ببريطانيا، حيث يرى الناقد الأمريكي "فنست ليتش" أن لهذا النقد تاريخاً طويلاً، أسهم في تشكيل الدراسات الثقافية-لاحقاً-، ويُعدُّ الناقد –سالف الذكر- من الذين دعوا إلى مشروع نقدي معاصر، هذا على الرغم من ظهور النقد الشكلاني، وما يقاربه من اتجاهات والتي شكلت معوقاً كبيراً في مسيرته، بسبب تقييد الدّرس الأدبي بالنص دون الالتفات إلى سياقاته الثقافية الخارجية.

وعليه، لا يمكن للنقد الثقافي أن يتخلّى عن ميزات خاصة في النقد الأدبي؛ إذ يستفيد من تجربته في قراءة النصوص وتحليل أساليبها وأنساقها؛ أي تلك التي تجعلها قادرة على توسيع آفاق الرّؤية لدى المتلقي، حيث تُحيل تسمية هذا الاتجاه في شقها الأوّل باعتبار كلمة النقد إلى الجانب الأدبي، وفي الثاني الثقافي على مجال فكري واسع هو الثقافة، وهذا الانقسام جعل روّاده يخشون من تشظيه، وبالتالي عجزه عن تحقيق تفرده.

أمّا النقد العربي-الحديث والمعاصر- لم يكن هو الآخر بمنأى عن هذا التوجه الجديد، "يمكن القول إن النقد الثقافي كما يوحي اسمه نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضعاً لبحثه وتفكيره، ويُعبّر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها، وبهذا المعنى فإن النقد الثقافي نقد عرفته ثقافات كثيرة، ومنها الثقافة العربية قديماً وحديثاً[1].

إنّ المستقرئ لهذا النصّ، يجد أن للعرب إسهاماً في مجالات التاريخ والنقد الثقافي والاجتماع والسياسة، مما يتماشى مع الثقافة ويشكل نقداً لها، ولنا فيما كتبه طه حسين، والعقاد، وجماعة الديوان، ثم نقد أدونيس في

[1]-البازغي والرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002، ص05.

الثابت والمتحول، وما كتبه بعض الباحثين المعاصرين كعبد الله العروي، ومُحَمَّد عابد الجابري، وطه عبد الرحمان وعلي حرب، ومحمود أمين العالم، ما يدل على ذلك[2].

لكن يبقى الناقد السعودي "عبد الله الغذامي" صاحب السبق في تهيئة المناخ نحو التأسيس لنسخة عربية في كتابه الموسوم بـ "النقد الثقافي –قراءة في الأنساق–" فازداد التفاعل العربي مع هذا الوافد الجديد؛ إذ يشتغل عليه عديد النقاد–تنظيراً وتطبيقاً– فكان منهم من نقل هذه الثقافة النقدية من مثل: محسن جاسم الموسوي في كتابه "النظرية والنقد الثقافي–الكتابة العربية في عالم متغير"، وعبد الفتاح العقيلي في كتابه "النقد الثقافي–قضايا وقراءات" وعبد القادر الرباعي في كتابه "تحولات النقد الثقافي"، أما في جانب إنتاج هذه الثقافة النقدية نذكر: عبد الله الغذامي في كتابه "النقد الثقافي"، ويوسف عليمات في كتابه" جماليات التحليل الثقافي"، وصلاح قنصوة في كتابه "تمارين في النقد الثقافي".

ثانيا: تجلّيات الأنساق الثقافية في شعر الأمير:

إنّ المتأمل في شعر الأمير عبد القادر يجده لا يستند إلى رصيد ثقافي ضارب في أعماق الحضارة العربية الإسلامية، تقوم فيه "الأنا" مقاماً محورياً ومركزياً؛ إذ يعتمد على هذه "الأنا" اعتماداً مصيرياً إلى درجة يُصبح معها القول هو "الجملة الثقافية" ومؤداه أن شاعرنا يُرسّخُ هذا النسق، فيستهل قصيده بخطاب "اللّحن"، ومعه يتنامى نسق "الأنا"[3].

من هنا، ظلّ الشعر الجزائري الحديث، وشعر الأمير عبد القادر "سجلاً لأحداث وذكريات الهلالية وبيئتها الأصل الحجاز، قد بات يفاعل المكان الجديد، ويتواجد معه بصميمته(...) لقد دأبت الهلالية، حتى بعد أن سلخت أجيالاً بيئتها البربرية وبعد أن تمازجت تمازج الثقافة والرحم، تُسقط قيم الموروث الحجازي على واقعها وتستجلي تضاريس موطنها الجديد(..) لقد كرّس تلك التقاليد التي جعلت عملية الإسقاط الثقافي تُماهي بين محليتها المغاربية وأرض الحجاز، وسيغدو هذا التفعيل تقليداً متواصلاً في قصائد الحنين"[4].

---

[2]–ينظر: عبد العاطي كيوان، التفكيك الثقافي–قراءة في سرد الغذامي– مكتبة الآداب، القاهرة، 2017، ص42.

[3]– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي–قراءة في الأنساق– الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004، ص127.

[4]–سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، دار الغرب، وهران، ط1، 2001، ص48.

وعليه، فإنّ هذه اللوحات الشعرية- الآتي ذكرها- لا تتمحور في جملة من الأنساق الثقافية النسقيّة التي ينبني عليها شعر الأمير، إذ سيكون دورنا في البحث عن الدلالة النسقيّة التي تأخذ بعداً نقديّاً يرتبط بالجملة الثقافية، حيث تتمظهر "مكونات مركزية لعناصر النسق الذي كان قبلياً، ثم انتقل مع الشعر ليكون نسقاً ثقافياً، على أنّ الجملة الولود التي تتولد عنها سائر الجمل النسقية الأخرى ومنها صنع الشاعر مهاراته في تضخيم الذات مقابل إلغاء الآخر"[5].

وسنوجزها في الآتي:

-الافتخار بالخصال والنسب الشريف.

-تضخيم الذات وإلغاء الآخر.

-الإشادة بالبادية والمرأة والاعتداد بالخيل .

والمتصفح لأشعار الأمير يجدها "استهلت بعض أشعار عنترة وأضرابه من الشعراء الجاهليين، واستحضرت مواجد أولئك الشعراء في الإعراب عن الحبّ وإظهار شمائل العزة والكبرياء والفروسية، وضاهتهم في الاعتداد بالخيل، الصاقات الجياد، ومخاطبتها ومقاسمتها المشاعر، كما جراتهم في استعراض المآثر الشخصية من موقع أخلاقي فخري متزن وبعيد عن التبجح"[6] .

والأكثر من ذلك، فإنّ شاعرنا "استمد شيئاً من خصائص الأدبية التراثية كما جسدتها تجارب الفحول من أمثال طرفة والنابغة والمتنبي والبحتري وأبي تمام وغيرهم(..) ولذلك جاءت قصائد الأمير إحيائية تضع القارئ في جو الشعرية العباسية والأوية والأندلسية، بل وطفقت تقربه من ذوق المعلقات ومن شعر الفروسية فيه خاصة"[7].

1- الافتخار بالخصال والنسب الشريف:

يقول الأمير:[8]

لنـــا في كـــلّ مكرمـــة مجـــال ومـن فـوق السـماك لنـا رجـال

[5]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي-قراءة في الأنساق-، ص127.

[6]-سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، ص108.

[7]-م.س، ص109.

[8]-الأمير عبد القادر، الديوان، ص34.

ركبنـــا للمكـــارم كـــل هـــول وخضـــنا أبحـــراً ولهـــا زجـــال

إذا عنهـــا تـــوانى الغـــير عجـــزاً فـــنحن الراحلـــون لهـــا عجـــال

ويقول أيضاً:[9]

ورثنـــا ســـؤددا للعـــرب يبقـــى ومـــا تبقـــى الســـماء ولا الجبـــال

فبالجـــدّ القـــديم علـــت قـــريش ومنـــا فـــوق ذا طابـــت فعـــال

يكفـــيهم شـــرفاً وفخـــراً باقيـــاً حمـــلَ اللـــواء الهـــاشمي الأطـــول

والظّاهر في هذه الأبيات، أن الشاعر يستند في خطابه الشعري على الرصيد الثقافي العربي الإسلامي الذي ورثه عن أجداده وقد شكلت موضوعة الفخر فيه البؤرة المركزية، حيث يقوم على أصل من الأفعال (الكرم، السخاء، الإقدام، الشجاعة). فقوله منثوراً: "لنا في كل مكرمة من المكارم مجال نترهْيَأفيه، ولنا في كل مأثرة من المآثر مضطرب نتسابق إليه. فنخفّ إلى القتال في الهيجاء، فنسجل الانتصارات"[10].

وأيًّا كان الشأن، فإنّ تنامي "الأنا" النسقية يتوارثه الشعراء جيلاً بعد جيل، فينتقل مع الشخصية الوارثة، ثم إلى المجتمع. "إنّ من يتفحص أشعار الأمير وتراثه الفكري والصوفي لن تفوته الخلفية التعليميّة التي أسس عليها الأمير ثقافته، ما يؤكد ارتباطه الوثيق بالتراث"[11].

2- تضخيم الذات وإلغاء الآخر:

إن المتمعن في شعر الأمير، يجده يستميز بخاصية "تضخيم الذات وإلغاء الآخر"، وهي ميزة تُدرج ضمن ما يعرف بـ "نسق الاستفحال" التي ظلّت تتسم بها شعرية الفخر لدى الشعراء العرب القدامى حيث "مذهب تفخيم الذات وتنزيهها ووسمها بصفات الكمال والقوة والغلبة والاستبداد، إذ أن معادلة الخطاب الفخري في الشعر العربي

---

[9]-م.س، ص36.

[10]-عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2002، ص174.

[11]- سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، ص107.

تعتمد في طرف منها على تشييد صورة مثالية للذات متكاملة الأبعاد المحققة للمجادة، وتعتمد في طرفها الآخر على هدم مكانة الخصم وتقزيمه وتحقيره والاستهانة بشأنه"[12].

يقول الأمير:[13]

ألم ترى في خنق النّطاح نطاحنا غداة التقيناكم شجاع لها لوى

وكم هامة، ذاك النهار، قددتها بحدّ حسامي، والقنا طعنه شوى

شددت عليهم شدة هاشمية وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

والقارئ لهذه النتفة الشعرية، يتبدى له "نسق الاستفحال" الذي صار يُميزُ شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، ويلون شعره بألوان "النسق الثقافي " الذي ورثه من أسلافه الفحول، حيث اعتداد الذات الشاعرة بذاتيتها، مقابل تحقير الآخر واعتباره دائماً بمثابة خصم لابد من سحقه". "فالسياق الفخري هنا شخصي- جمعي في الآن نفسه-، والنعوت الإعلانية فردية شمولية كذلك، والغاية هي إجلاء صورة الفرد الرّمز المحمي بقوته(... المر الذي يبين أن الغاية من الفخر كانت توطيد المكانة تحقيقاً للمقاصد الشخصية والجماعية"[14].

يقول الأمير:[15]

سلوا عنّا الفرانيس تُخبرنكم ويصدق، إذ حكت، منها المقالُ

3- الإشادة بالبادية والاعتداد بالخيل:

إنّ المتأمل في شعر الأمير عبد القادر، يقف عند عديد التقاطعات الخطابيّة، فسياقاته تحاور الجملة النسقية الثقافية العربية، إذ تتجلى قيم وصور وتقاليد الجاهلية، فتأثره بالشعر العربي القديم "حلي وملموس في الجملة، بل

[12]- سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، ص158.

[13]-الأمير عبد القادر، الديوان، ص56.

[14]- سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، ص155.

[15]- الأمير عبد القادر، الديوان.

إنه سيرى التناص يتجلى مع قيم وصور وتقاليد خطابية جاهلية لاسيما ما تعلق منها بقيم الفروسية والنخوة والوصف والإشادة بجمال المرأة وبالبادية وفضائلها"[16].

يقول الشاعر:[17]

لـو كنـت تعلـم مـا في البـدو؛ تعـذرني لكـن جهلـت وكـم في الجهـل مـن ضـرر

ويقول أيضا:[18]

إذا مـا اشـتكت خيلـي الجـراحَ تحمحمـاً أقـــول لهـــا: صـــبراً كصـــبري وإجمـــالي

نستنتج مما سبق، أنّ الأنساق الثقافية في شعر الأمير، تتمظهر في:

1- إنّ المتأمل في شعر الأمير، يجده يستند إلى رصيد ثقافي ضارب في أعماق الحضارة الإسلامية، تقوم فيه "الأنا" مقاماً محوريّاً ومركزيّاً.

2- إنّ المكونات المركزية لعناصر النسق لدى الأمير نجدها ماثلة في:

- الافتخار بالخصال والنسب الشريف.
- تضخيم الذات وإلغاء الآخر.
- الإشادة بالبادية والمرأة والاعتداد بالخيل.

3- إنّ الشاعر يستمد شعريته من الخصائص الأدبية التراثية كما جسدتها تجارب الفحول من أمثال طرفة والنابغة والمتنبي والبحتري.

قائمة المصادر والمراجع:

1) البازغي والرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002.

[16]- سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، ص109.

[17]- الأمير عبد القادر، الديوان، ص44.

[18]- المصدر نفسه، ص42.

2) سليمان عشراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، دار الغرب، وهران، ط1، 2001.

3) عبد العاطي كيوان، التفكيك الثقافي-قراءة في سرد الغذامي- مكتبة الآداب، القاهرة، 2017.

4) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي-قراءة في الأنساق- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004.

5) عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2002.